مسألة الحداثة
في كتابات عبدالله العروي

د. محمد سبيلا *

كانت وضعية الضعف والتفكك الذى شهدها المغرب فى القرن الماضى قد بلغت ذروتها مع هريمة الجيش المغربى فى معركة إيسلى أمام الجيش الفرنسى ١٨٤٤ وهزيمته أمام الجيش الاسبانى فى معركة تطوان ١٨٦٠ . حيث أصبح المغرب منذ تلك الفترة محط أطماع استعمارية مباشرة من طرف أسبانيا وفرنسا.

هذا الوضع شكل الأرضية التاريخية الأساسية لموقف النخبة المثقفة المغربية من مسألة الإصلاح والتحديث ، حيث بدا لهذه النخبة أن لا سبيل لإنقاذ المغرب من براثن الأطماع الأجنبية إلا بمباشرة الإصلاحات وإدخال التنظيمات الضرورية فى ثلاث مجالات كبرى : إصلاح الجيش بتحقيق ما سمى آنذاك بحرب النظام ، إصلاح الإدارة والنظام السياسى وإصلاح الاقتصاد على أسس عصرية .

هكذا أصبح الاختيار التحديثى أمرا ثابتا لذى النخبة المغربية منذ ما قبل الاستعمار ، وخلال الاستعمار (الحجوى - بلحسن الوزانى - أبو عبدالله السليمانى - علال الفاسى - سعيد حجى ..) ثم فى مرحلة الاستقلال حيث تجذر هذا الاختيار واتخذ بنية فكرية أعمق كما فى كتابات العروى والجابرى وآخرين .

ليس موقف العروى ، داعية الحداثة ، موقفا نشازا فى تاريخ المغرب

(*) أستاذ الفلسفة ، كلية الآداب - الرباط ، رئيس الجمعية الفلسفية المغربية، رئيس تحرير مجلة «مدارات فلسفية».

الحديث، بقدر ما هو استمرار وتتويج لمسار كوكبة من المثقفين المغاربة الذين تبنوا الحداثة ودافعوا عنها واعتبروها طريق المغرب إلى اكتساب مكانة تحت شمس العالم المعاصر .

تتميز النزعة الحداثية عند العروى بجذريتها وبمعارضتها لكل أشكال التقليد، انطلاقا من أن مجتمعاتنا قد دخلت فى «قطيعة فعلية» مع هذا التقليد منذ زمن غير يسير. وذلك بمقابل التحديثين الذين ينادون بضرورة فهم التقليد وقراءته قراءة عقلانية حديثة بغية فهمه ، والانطلاق منه ، لتحقيق حداثة لا تعادى ولا تجافى الهوية والتراث .

نادى العروى منذ «الإيديولوجيا العربية المعاصرة» (١٩٦٧) بضرورة القطيعة مع التراث وتبنى الحداثة من خلال اختيار حاسم ، لم تزده الأيام إلا صلابة. ففى كتابه الأخير «مفهوم العقل» (١٩٩٩) ، يتوجه العروى بالرد المبطن على الاتجاهات التوفيقية ، التى يتضمن موقفها خلطا بين العصور والأزمنة والمفاهيم، واستصغاراً للمسافات والفواصل التاريخية والقطائع الفكرية الناتجة عن الحداثة ، مبينا محدودية العقلانية العربية الإسلامية الكلاسيكية ومحدودية حركات الإصلاح والبعث والنهضة ، وحدود العقلانية الاسمية النصية مبرزا انه ليس أمام البلدان التى هى فى وضعية تأخر تاريخى إلا اختيار واحد وحيد أوحد هو اختيار الحداثة واستيعاب العقل الحداثى . والخطوة الأولى فى ذلك هى الحسم بالقطاع مع «المنطق الموروث» ، منطق القول والكون ، منطق العقل بإطلاق [1].

فالخروج من التأخر التاريخى المزمن ، وإدراك زمن العالم يتطلب القيام بثورة ثقافية تتمثل فى القطيعة مع التقليد باعتباره قيدا وإطارا فكريا عتيقا عف عليه الزمن . لكى يبدو وأن العرب يجوبون الطريق إلى العصر معكوسا ، فنقد

---

(١) العروى : مفهوم العقل ٣٦٤ – انظر . عبداللطيف . دوس العروي : الرباط ٢٠٠٠ ، سلسلة المعرفة للجميع .

ورفض الفكر الغربى ، الذى هو أساس الحداثة ، لا يشكل فى حد ذاته ثقافة بديلة. ولا طريقا نحو التقدم مثلما أن الارتماء فى أحضان الماضى هو مجرد عملية هروب وآلية سيكولوجية تعويضة على عسر التكيف مع العالم الحديث، ومجرد حنين رومانسى إلى ماض طمره التطور .

تقترن دعوة العروى إلى الحداثة بنقده للتراث ، وبيان محدودية التقليد والنظرة التقليدية وعدم تلاؤمها مع العالم الحديث ، بل إن تجاوز العقل التقليدى التراثى لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الاختيار الحاسم والنهائى للحداثة لأن العقلين نقيضان لا إمكان بتاتا للجمع بينهما فأحدهما يتنافى مع الآخر .

ما هى هذه الحداثة التى يدعو إليها العروى ، ما هو مدلولها ومقوماتها وأبعادها؟

يسلم العروى بأن هناك نموذجا واحدا للحداثة ، وهو التجربة الغربية التى حدثت فى أوربا وبالضبط فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر تم انتقلت بالتدريج الى عموم أوروبا الغربية وبلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر مع مرحلة الأنوار. مضمون هذه الحداثة هو الانفتاح ، والمغامرة ، والتجربة ، واللعبة ، والتحرر من قيود التقاليد ... إنها سيرورة كلية شاملة تطال ، بسرع ووتائر متفاوتة ، كافة القطاعات الاجتماعية ، سيرورة انخرطت فيها كل المجتمعات ولا تعرف لها نهاية، مما يجعل كل تعريف لها قابلا للتجاوز . فالحداثة فى تجلياتها الملموسة هى الزراعة التنافسية ، والتعليم ذو المردود ، والمدن المتفتحة ، والاقتصاد التبادلى الموسع ، والدولة المركزية ، والفكر المتحرر من التقاليد ، والتنظيم الديمقراطى ، والعلم التجريبى ... الخ .

منطق الحداثة هو التحول الدائم والتغير الدائم ، والسعى الدؤوب نحو اكتساب المزيد من القوة والقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وعلى التحكم فى الإنسان وخدمته . الحداثة بهذا المعنى ليست مجرد اختيار ذهنى مجانى بقدر ما هى استجابة لحاجات اجتماعية تاريخية ضاغطة وذات طابع حتمى ، لأن كل

المجتمعات والدول فى حالة صراع وتنافس بينى دائم .

تتخذ الحداثة فى الأغلب الأعم ، صورة الاستجابة الضرورية والتلقائية لمعطى الندرة والصراع من أجل الخيرات . وكل الشعوب تجد نفسها أمام تحدى وتنافس وصراع لاحد له ، ويصبح اكتساب الحداثة بمثابة اكتساب للقدرة على مواجهة الاعداء[١] بل إن أغلب المجتمعات تجد نفسها أمام المعادلة التالية : أما التغير أو الموت[٢] . وبما أن كل المجتمعات تخشى الموت والاندثار فإنها لا تجد بدا من خيار التطور والتحديث رغم أن كلفة هذا الاختيار الحتمى كلفة عالية جدا[٣] لأنها تفرض على الشعوب التضحية بالروح من أجل الحفاظ على الوجود كما قال هشام جعيط فى معرض حديثه عن فكر العروى[٤] .

إلا أنه إذا كان حافز التطور والتحديث حتميا وموضوعيا بالنسبة لكل المجتمعات، فإن شكل هذا التطور يتوقف على طبيعة ونوع النخب القائدة والموجهة (السياسية ، أو العسكرية أو الدينية ، أو الثقافية) إما كنخب تقليدية أو كنخب تحديثية .

من خلال تتبع نصوص العروى حول الحداثة والتقاط ملامحها المتناثرة عبر نصوصه يمكن أن نقول أن الحداثة سيرورة شاملة لكل القطاعات لكن جوهرها الفكرى يتمثل عنده فى التاريخانية والعقلانية والفردانية والنسبية .

التاريخانية عند العروى مفهوم متعدد، إن لم يكن لا نهائى الدلالات حيث يتراوح معناه بين المدلولات المنهجية والمدلولات المذهبية . المدلول المنهجى يعنى النظر إلى الظواهر من خلال المحددات التاريخية الملموسة التى ولدتها . والتاريخانية بهذا المعنى هى إلى أى حد كبير مضمون موقف العلوم الأنسانية

---

(1) Bensmain: Symbole et idéologie. p. 27.
(2) Laroui: Islamisme, Libéralisme, modernisme. Casablanca. P. 25.
(3) Laroui: Islam et modernit. Psris la découverte. P. 96.
(4) H. Djait: L'Europe et l"islam. Seuil. p. 150.

التى تدرس الظواهر الإنسانية والاجتماعية فى إطار سياقها الاجتماعى ومحدداتها التاريخية المختلفة الملموسة .

لكن للتاريخانية عنده دلالات أخرى نورد أهم عناصرها فيما يلى :

١ - التاريخانية تقوم على الاهتمام بالممارسة وبمنطق العمل والفعل لا بمنطق الخطاب والتفكير والتعبير والنظر والأمل . ومن ثمة أولوية رجل الفعل والممارسة على رجل النظر والتعبير . وغالبا ما يقيم العروى تعارضا بين منطق الفعل (الذى يدعوه عقل الفعل) ومنطق الخطاب (الذى يدعوه عقل الإسم) [١] .

٢ - اعتبار أن التاريخ خاضع لقوانين ، أى لحتميات محددة ، وخاضع لايقاع معين ، أى لقوانين احتمالية أو ميلية ، وليس مسارا جزافيا خاضعا للنزوات والصدف والإيحاءات ، وبالتالى فليس للتاريخ إلا اتجاه واحد[٢] ومعنى واحد، مما يجعل قوانين التطور التاريخى تتسم بقدر من الثبات [٣]، وتفرض نوعا من حتمية المراحل .

٣ - السمة الثالثة للتاريخانية هى النسبوية بمعنى أن الحقيقة نسبية وليست مطلقة لأنها مشروطة بظروف إنتاجها وظهورها . وأكبر عدو للفكر التاريخانى هى الحقائق الجاهزة والمطلقة الصالحة لكل زمان ومكان . فالتاريخ هو الذى ينتج الحقائق ، وهو الذى يضفى عليها طابعا نسبيا ويجعلها خاضعة لصيرورة المجتمعات نفسها . والوجه الآخر لنسبية الحقيقة هو تطليق الأحكام المطلقة، واعتبار أن العلم ليس مجرد قراءة وتأويل لأقوال العارفين [٤]، وأن السياسة جهد إنسانى وتوافق بين ذهنيات ومصالح عن طريق النقاش الموضوعى والتجريب المستمر .

---

(1) Laroui: Islamisme , modernisme, p. 39.

(٢) العرب والفكر التاريخى ص ١٩٠ .

(٣) العرب ص ٢٢٦ .

(٤) العروي : الإيديولوجيا العربية المعاصرة . مقدمة الطبيعة العربية (بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٩) ص ١٦.

والحداثة ذاتها لا تدعى الإطلاقية والأحكام النهائية إذ لا شيء فيها كلى ونهائى ، فلا الديمقراطية ، ولا العلم ، ولا التقنية ، ولا حتى الايديولوجيات التى تفسر هذه التجارب (= الترعة الاقتصادية، الترعة الوضعية ، اليبرالية ، الماركسية ....) لا أحد منها يدعى أنه حكم مطلق وقيمة مطلقة [١] .

٤ – السمة الرابعة للتاريخانية هى دور النخب السياسية والثقافية فى عملية التطور التاريخى فالنخبة تستطيع بوعيها التاريخى والتاريخانى أن تخفف من غلواء الحتمية التاريخية ، وتجعل المجتمع يعيش نوعا من الطفـرة واقتصاد الزمن [٢]. ذلك لأن التاريخ يصنع بالجهد الإنسانى ضمن الشروط المعطاة كما أنه محط إبداع مستمر يجعل النموذج الإسانى قائما فى الأمام لا فى الخلف، فى المستقبل لا فى الماضى ، مثلما أن التقدم ليس تجسيدا لأشباح الماضى[٣] .

٥ – السمة الخامسة للتاريخانية هى نفى أى تدخل خارجى فى التاريخ وفى تسبب الأحداث بحيث يكون التاريخ هو سبب وخالق ومبدع كل ما روى ويروى عن الموجودات أو بمعنى آخر أن كل ما يقع فى المجتمع البشرى هو نتيجة تفاعل اجتماعى ، وأن للأحداث أسبابا عينية يتعين على البحث التاريخى تشخيصها، وإيجاد العلاقات بينها وبين البحث فى مظاهر انتظاميتها ، وحتميتها .

يردد العروى فى كل كتاباته باستمرار وبصيغ مختلفة أن لا سبيل لاستدراك التأخر التاريخى إلا بتملك روح الحداثة وفكر الحداثة ، لكنه لا يقدم وصفة تفصيلية جاهزة لهذه الحداثة التى يتعين احتذاؤها بل يحاول رسم بعض المعالم الفكرية الأساسية لها ، انطلاقا من نموذج تار يخى أصبح كونيا هو الحداثة الاوروبية ، وبخاصة عقلانية القرن التاسع عشر وفلسفة الأنوار فى أوروبا . يدعو العروى العرب إلى استيعاب مقومات ومكاسب العقل الحديث من عقلانية،

---

(1) Laroui: Islam et modernité. p. 79.

(٢) العروى : العرب والفكر التاريخى ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٣) العروى : الايديولوجيا ، ص ١٦ .

وتاريخية، ونسبية ، وفردانية ، وفعالية مميزا بين إيديولوجيا وسياسية الغرب الأمبريالي الحالى وبين الفكر العقلانى الاوروبى الحديث ذاته ، أى بين المنهج والإيديولوجيا .

وقد أشار هشام جعيط [1] إلى وعى العروى الحاد بهذه المفارقة بين الغرب العقلانى النموذجى ، والغرب الاستعمارى مبينا أن العروى يناهض الغرب من حيث هو سيطرة وهيمنة ، ويحتذى به من حيث هو عقل وحس تاريخى . إن نزعته الحداثية تود أن تكون نزعة تحديثية، سياسية وتاريخية ، لكن فى إطار قومى ووطنى .

من الدلالات الحافة للتاريخانية الارتباط بالتاريخ الحى ، وبالتجربة الحية. لكن يبدو وكأن العروى يتخلى عن هذه الروح فى استشرافه لمستقبل المجتمع العربى بدعوته الحاسمة إلى القطيعة مع التراث وكأن من الممكن تحقيق حداثة خارج هذا التاريخ الحى . والحال أن تجربة كافة المجتمعات البشرية تدل على أنه ليس بالإمكان تحقيق الحداثة عن طريق التنكر للتراث أى للشرط الوجودى لتاريخ المجتمعات .

فالتراث ليس مجرد نظارة يمكن اقتلاعها والقذف بها فى سلة المهملات، بل هو الشرط الوجودى الأساسى لهذه المجتمعات . إن التراث كثقافة ليس مجرد زينة إضافية يمكن أن نتخلى عنها متى شئنا بل هو معنى ، وغاية ، وإطار محدد ثقافى وميتافريقى . والتجربة الأوروبية نفسها تشهد على ذلك . فباستثناء الاتجاهات العدمية – وهى محدودة – التى نادت بتدمير التراث والقفز عليه ، فإن الحداثة الأوروبية قامت على العودة الى التراث اليونانى والرومانى والمسيحى ذاته استعمالا وتأويلا بهدف اعطائه معنى جديدا محفزا . وما اعتراف كبار المفكرين

---

(1) H. Djait: L'europe et l'islam. Paris Seuil 1978. 151.

الغربيين بدور الاصلاح الدينى فى الحداثة الأوروبية (هيجل - فيبر - هيدجر..) إلا تأكيد لفكرة بديهية مؤداها أن التحديث إما أن يكون داخليا وأهليا وذاتيا أولا يكون . فما بالك بحداثة ارتبطت منذ ظهورها الفضاء العربى الإسلامى بالاستعمار ، وبالغرب ، أى بالعنف والاستتباع والتفكيك والسيطرة ونهب الموارد والاحتقار . إن الحداثة إذا لم تنبثق عن تطور ذاتى فهى وجه آخر للاستعمار والسيطرة . ولعل هذا هو ما تعانى منه الحداثة العربية الإسلامية الهجينة من التباس ورفض وردود فعل دفاعية .. الخ . أليس القول بضرورة القطيعة مع الماضى والتراث الذى يضم عوامل وأحباط وتكلس وتباطؤ لكنه بنفس الوقت يحتوى رحما عقلانيا وقدرات تجديدية ، هى دعوة لإلغاء التاريخ بالاضافة إلى كونها عملية تقوم على تصور إرادوى للتاريخ وللمجتمع ؟ .